يسرنا ان نرى بوادر العلم والتربية في افراد من امتنا الاسلامية في كل شعب وكل قطر وأن نرى بعض مرشديها يحثونها على الاستزادة منهما ويسوءنا ان بعض المتباهلين المراثين يفتاتون على المرشدين المخلصين فيعلقون آمال الامة بغير هذا الطريق المعبّد والصراط السوي في تقويم الحكومة وما يجب ان تعاملها به الامة . ولكن قضت سنة الله بأن يغلب الحق الباطل ويرجح النافع على الضار ولو بعد حين

يسهل على من أوتي الطلاقة في القول والعرفان باهواء الجماهير ، أن يغش امة هي في طور الطفولة في الحياة الاجتماعية وليس لها زعماء وحكماء ترجع في الامور العامة اليهم . ويسهل على من أوتي الحكمة وفصل الخطاب ان ينصح لها ويهديها سبل الرشاد ، فاذا هي رزئت بالمخلطين وحدهم شقيت ، واذا هي رزقت الناصحين سعدت ، واذا تنازعها الصنفان وجد صاحب الحق من نصر العقلاء وإن قلوا ، ما يفل جموع أنصار الباطل وان كثروا ، وبذلك ترتقي الامة ارتقاء يجعلها أهلا لان تختار حكامها وتحدد لهم الجزاء المالي على اعمالهم وتمنحهم الجاه والشرف باختيارها لانهم يحكمونها بمشيئتها المبنية على الحكمة والعرفان ، وهي تجزيهم بمشيئتها الناشئة عن الرضى والاذعان

الى اي شيء انت يا مصر احوج

للقطر المصري في هذا العصر حال لا يشاركه فيها قطر آخر من اقطار الارض وهذه الحال مفيدة له من وجه ومخطرة على أهله من وجه آخر فيجب ان يعرفوا كيف يجتنون الفوائد من الوجه الاول ويجتنبون الغوائل من الوجه الثاني

الحال التي انفرد بها هي ان جميع الامم الراقية تنازع أهله الحياة في المعاش أو الاقتصاد كما يقال وفي الاجتماع والآداب وما من أمة منها الا وهي ارقى من أهله في العلوم والاعمال ولها من الحقوق فيه أكثر مما لهم فالقوانين المصرية تبيح للاجانب ان يملكوا من البلاد كل ما يملكه الوطني وان ينشروا فيها لغاتهم واديانهم ومذاهبهم ويأتوا بعاداتهم وتقاليدهم كما يفعل الوطني ولكن الحكومة المصرية ليس لها من المراقبة والسلطان على الاجنبي مثل ما لها على الوطني فالاجنبي أوسع

حرية واكثر استقلالاً في اعماله كلها

اما وجه الفائدة من هذه المثال فهو ان الاوربيين في مجموعهم مدرسة جامعة في البلاد تعلم أهلها من الاعمال المالية بأنواعها والاجتماعية والادبية ما لم يكونوا يعلمون وتعليم العمل اقرب الى النفع من تعليم العلم اذ العمل مقصد والعلم وسيلة اليه في الغالب فكل عامل ينفع البلاد ويرقيها وما كل عالم ينفع وما علينا — والمدرسة العملية مفتحة الابواب ودروسها مبذولة في كل مدينة وقرية لكل من له عين تبصر واذن تسمع وعقل يدرك وقلب يتأثر — الا أن نتعلم كيف نكتسب وكيف نقتصد وكيف نؤسس الشركات ، وكيف نؤلف الجمعيات ، وكيف نحافظ على الآداب والعادات ، وكيف نقيم بناء وحدتنا الجنسية ، وكيف ندعو الى عقائدنا وآدابنا الدينية ، وكيف نوزع هذه الاعمال على اصناف العاملين ، وكيف نكون مع هذا التوزيع متعاونين متكافلين

وأما وجه الخطر ، فهو اجلى واظهر ، فان ضعيفاً ينازع الاقوياء الحياة يوشك ان ينزعوه ، وواهنا يصارع الاشداء يقرب ان يصرعوه ، واذا كان في الامثال المسلمة « ضعيفان يغلبان قوياً » فما بالك بعدة اقوياء يغالبون ضعيفاً واحداً ألا يكون الخطر عليه شديداً ؟ بلى انه يخشى ان تنزع هذه الشركات الاجنبية والمصارف (البنوك) اكثر ما في ايدي المصريين من أرض مصر حتى يكون اكثرهم فيها اجراء لا رزق لهم الا ما يفيضه المالك الجديد عليهم من اجور أعمالهم من الحرث والخدمة ويكون الكثيرون منهم عالة لا يجدون من جود الاغنياء ما يسد رمقهم ويفنى الباقون في الغالبين بالتقليد والمحاكاة . يومئذ (لا كان يومئذ) لا يستطيع ان يقول المصري هذه بلادي فأنا أولى واحق بأن اتولى أحكامها بنفسي وأدير نظامها بيدي .

انما يخشى ان يسرع هذا الخطر المادي اذا شايعه الخطر المعنوي وامده في سيره وهو التهاون في امر مقومات الامة ومشخصاتها من الدين واللغة والآداب والعادات الحسنة بل اقول لا يمكن لأمة ان تحفظ كونها الا بالمحافظة على عاداتها وان كانت غير حسنة ولا قبيحة وان تتروى في القبيح منها فتدعو الى تركه ان تحقق قبحه بالتدريج واستبدال النافع بالضار ولا حسن في عادات الامم الا النافع

ولا قبيح الا الضار . الم تروا ان أعز الامم واوسعها سلطاناً هي اشد الامم محافظة على العادات والتقاليد المشخصة لها وان كان غيرها خيراً منها ؟ ألم تعلموا أن اكثر الامم الاوربية قد استفادت حيلتها بعد ما استفرت بلاغتها وفصاحتها في محاولة اقناع الانكليز باستبدال المقياس العشري (المتر) بمقياسهم (اليرد) بل بتوحيد المقاييس — وناهيكم بفوائده — فلم يزدذلك الانكليز الا محافظة وثباتاً على مادرجوا عليه . ألم يأتكم نبأ ما كان لاسمعيل باشا الخديو التاريخ المسيحي باثار يخ الهجري من الفرح والسرور في أوربا ؟ قيل ان ذلك اليوم كان عند الاوربيين عيداً من الاعياد بل فتحاً مبيناً من أجل الفتوحات في تحويل الشعوب من حال الى حال . وهم ينظرون عيدا ثانياً أو فتحاً آخر باقناع المسلمين عامة في مصر بترك العمل يوم الاحد كما فعل بعض تجارهم

تنتزع اراضي مصر من أهلها قطعة بعد قطعة فلا تشعر الامة بانتزاعها لان البلاد تبقى على حالها لا يتغير من معالمها ولا من شؤون عولمها شيء ، وتترك مقومات الامة ومشخصاتها عقيدة بعد عقيدة وعادة بعد عادة ولا تشعر الامة بتركها وما له من الأثر في حياتها لان تحول الامم كتحول الظل لا يشعر احد بحركته ويشعر كل احد بعاقبته ، وانتقال الثروة من الشعب الكبير كانتقالها من الرجل الواحد الذي يغتر بكثرة ماله فيسرف ويبذر لا يلاحظ عند كل نفقة ما بقي من ماله ولا نسبتها الى دخله وانما تنحصر ملاحظته في شيء واحد وهو انه يملك مليوناً فهو اليوم ينفق عشرة آلاف على انها عشرة من مليون وفي غد ينفق عشرة أخرى على انها عشرة من مليون ولا يزال يرى المليون مليوناً وان لم يضم اليه شيئاً والعشرة عشرة وان صارت بانضمامها الى ماقبلها عشرات فمئات حتى تستغرق المليون فلا يبقى منه شيء أو يبقى منه مايكون مثله في يد الفقير والمسكين

لا يهولنك ماقرأت فتكون من اليائسين ، ولا تستهينن به فتكون من المغرورين ، فان الخطر الذي ذكرناه — وان كان صحيحا — مما يمكن اتقاؤه وان لمصر على ضعفها قوة الملك المدافع عن ملكه أو المحافظ عليه في زمن لا غصب فيه ولا مصادرة في المال ولا استبداد يحول دون التربية والتعليم والمحافظة على مقومات الامة من

اللغة والشعائر والاخلاق والعادات فالخطر المخشي ليس خطرا اضطراريا لا قبل لنا به ولا حول لنا ولا قوة على دفعه وانما هو خطر نتقحمه فيه بمشيئتنا واختيارنا واذا نحن اتقيناه كان مصدره وهو التنازع بيننا وبين الاجانب مصدر علم وعرفان ، وترق في الاجتماع والعمران ، نعم انه لا يخلو من اثم ولكن منافعه تكون اكبر من اثمه

كيف يتقى هذا الخطر؟ قد علم مما مر ان الخطر محصور في امرين اضاعة الثروة واهمال مقومات الامة . فاما الثروة فلها ثلاث آفات أو ثلاث بلاليع — القمار ومنه مضاربات البورصة وقد فشا وباؤه في القطر المصري حتى لم يدع قرية ولا مزرعة (عزبة) سالمة من فتكه ، واعطاء الربا للاجانب وبيع الاطيان والاملاك منهم . ولا سبيل الى اقناع جميع الناس باتقاء هذه الآفات الثلاث ولكن الجرائد اذا فصلت مضارها وكررت النذر فيها وتتبعت الوقائع والحوادث في تخريبها للبيوت وافقارها للاغنياء واذلالها للاعزاء رجونا ان يقل فتكها حتى لا يصل الى درجة الخطر على الامة

وأما مقومات الامة فأمرها أعظم ومجال القول فيها أوسع وانما نخاطب في شأنها الزعماء المصلحون والعلماء العاملون والاغنياء العاقلون وأصحاب الصحف الغيورون والخطباء المؤثرون إذ المدار فيها على ايجاد معاهد للتربية والتعليم ينشأ فيها الرجال المستقلون ، والنساء القادرات على تربية الولدان واقامة النظام في البيوت ، وهذا مما يطلب من الزعماء والاغنياء ولا ينكر ما للجرائد الناصحة من التأثير في الحث عليه ، ثم على النصح المتابع للأمة في المحافظة على تلك المقومات واعلاء شأنها والتقريع الشديد للذين يهملون شيئا منها وهذا مما يطلب من الخطباء والكتاب .

واني لأعجب كيف تقصر الجرائد الوطنية في هذين الركنين العظيمين — حفظ ثروة الامة وحفظ مقوماتها الجنسية وترقيتهما — وتطيل الكلام في المسائل الخارجية والحوادث الجزئية فيكون اكثر ما تقوله لغوا لا فائدة فيه للجمهور . أليست مصر احوج الى حفظ ثروتها ومقوماتها منها الى سائر الاشياء ؟ أليست هذه الثروة والمقومات على خطر من التنازع مع سائر الامم يجب تداركه ؟ أليست الجرائد هي المطالبة ببيان ذلك والحث على تلافيه؟ بلى وعسى ان يكون عناية الجريدة به اكبر من عنايتها بسواه والله الموفق